



الخبيبة في كتابات "أدهم شرقاوي"

"السلام عليك يا صاحبي نموذجاً"

دة. للا زوليخة بابا

أستاذة مكونة بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

العيون الساقية الحمراء

المغرب

يقول أدهم شرقاوي:

أتعرف يا صاحبي ما هو المؤلم أكثر من الضربة؟

وما هو موجه أكثر من الطعنة؟

أنها الخبيبة

أن تحسب أنك في مأمن، فتكتشف أنك في مرمى النار

وأن تعتقد أنك في منعة، فتجد أنك هنت

الجرح يلتئم، ومكانه يشفى،

ولكن الخبيبة ستبقى تتر إلى الأبد

يا صاحبي

أنا لست مترعجا منك،

وأن كان الانزعاج أقل واجب

ولست غاضبا أيضا،

وأن كان الغضب شعور طبيعي في موقف كهذا،

ولكنني موجه، موجه جدا

تؤلمني فكرة أن حسبتني أحفظك عن ظهر قلب،

فاكتشف أنك غريب القى علي التحية في مطار ومضى

لا أعرفه، ولا يعرفني

يا صاحبي،

ما أقسى أن يصبح الأحبة غرباء

والسلام لقلبك¹

¹ السلام عليك يا صاحبي: أدهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص 137.



لا شك أن كتابات الكاتب "أدهم شرقاوي" لم تكن لتلقى كل هذا الإقبال من طرف القارئ العربي، إلا لأنه استطاع أن يصل إلى الأبواب الموصدة والدروب الوعرة في وجدان هذا القارئ، إلى مكمن الوجد الغير معبر عنه، الوجد الذي يأتي من القريب قبل البعيد، ولعل الأزمة الكبرى في حياة الناس هي تلك المرتبطة بأزمة الثقة التي يودعونها في قلوب تعلقت بما أرواحهم ولطالما ظنوا معها أنهم في مأمن.

انه احساس الخبيبة، الذي عبر عنه كثيرا "أدهم شرقاوي"، الاحساس الغير هين الذي تسبقه أحاسيس كثيرة كالصدمة والاحباط والغضب والحزن ثم الانزعاج فتتبلور هذه الأحاسيس ليصبح كل احساس بدون معنى وهو منفرد، فيتولد الوجد الذي يسمى "الخبيبة"، فيسكن الذات المحروحة، المتألمة من غدر الآخرين، وتتحوّل النظرة إلى الحياة إلى نظرة قائمة، فيقف الإنسان على بعد خطي من الحذر وعدم الثقة، فروحه المتعبة والآيلة إلى السقوط، تحاول الإمساك بقشة نجاة، أما الحياة التي تروض الذات لتفهم معنى النجاة، بعد أن كنت غريقا في بحر لا قرار له معتقدا في لحظة ما أنك امن في سربك.

أن الوصول إلى هذا العمق الروحي للتعبير عن الذات الإنسانية، النائية في غياهب الحياة، لتصبح مادة ابداعية ليجتاح إلى كثير من رهافة الاحساس ونظرة عميقة للألم الإنساني، ولغة ابداعية عالية وتوجه جديد في الكتابة، يمتح مما هو فلسفي تأملي مستندا إلى زاد ثقافي كبير ذو مرجعية دينية وتاريخية، كتابة يمكن اعتبارها نوع من "السلوى" أو "الطبخة" الإنسانية، في زمن القلق ومحدودية الرؤية إلى الحياة، وضيق الأفق في العلاقات الإنسانية، حيث كثرت الاستهانة بمشاعر الطيبة وحسن الخلق، وحيث أصبحنا أمام صراع إنساني كبير أججه الغدر والخيانة والنفاق والنجاسة العالية والجشع، فأصبحنا أمام أزمة قيم وأخلاق، حيث أصبح الإنسان عدو غيره بقدر ما يمتلك من نعم وفضائل ونجاحات في الحياة.

أما الأزمة الكونية الجديدة، فلم يعد الشغل الشاغل للإنسان سوى محاربة لأخيه الإنسان وكلما كان قريبا كلما كانت العداوة أكبر. تغير الزمن وتغير الإنسان فتغيرت وجهة الابداع أيضا، ولعل هذا ما أثبتته كتابات "شرقاوي" التي سلطت الضوء على هذا الزمن المتغير، الذي أصبح الإنسان يبحث فيه فقط عن سلامه النفسي وهدوءه، يقول:

أسوا ما في الأمر يا صاحبي أننا لم نعد نبحت عند الناس عن الغنيمة،

وإنما عن السلامة

أن يسدوا اليك أبسط حقوقك، يعني أن يدعوك وشأنك

ولكنك تكتشف أن هذا الأمر مستحيل

أنهم يعيشون في حياتك أكثر مما يعيشون في حياتهم

وانك والله أحيانا تريد أن تعرف ما الذي يسعدهم لتفعله وتنحو بنفسك

ولكنك يا صاحبي تفشل²

أن هذا الكم الهائل من الوجد الإنساني الذي تحمله هذه الكلمات، يجعل كل قارئ يتماهى معه باعتباره يخصه وحده وأن هذه الحكاية حكايته، ولهذا يحمل النص الابداعي مسؤولية كبيرة في التعامل مع المتلقي، أن تكتب وجعا ربما كان وجعك في لحظة ما عشته أو عايشته، فإذا هو وجع كل هؤلاء، "فنحن لا نقوم ونحن نحكي سوى بوصف قلوبنا، لنسندها بعد ذلك إلى شخص آخر "شأتو بريان"، اننا نعيش بقصصنا ولكن قصصنا لا يمكن أن تستقيم إلا من خلال استحضار قصص الآخرين"³

² السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص11

³ الهوية السردية المحكي بين التخيل والتاريخ: سعيد بنكراد، المركز الثقافي المغربي 2023.



أن الوجد الإنساني واحد مهما اختلفت أوجهه، والقلوب المتألمة هي ذاتها، والالين له نفس الصوت.

أن الكتابة عن الالام الإنسانية هي أصعب نوع من الكتابات، ولعل الكاتب "أدهم شرقاوي" اختار الطريق الأصعب في الكتابة الابداعية، أن تلامس قلوب ملايين القراء فهذا جهد إبداعي كبير، وأنت كاتب ذو حظ عظيم، ان تكتب كل هذه الالام، لابد أن تكون متألماً حتى النخاع، فهل يمكن أن يكتب الإنسان خارج ذاته؟ وهل يستطيع أن يكتب بكل هذا الصدق إذا لم يكن الوجد قد لامس ثنايا القلب؟ فالكتابة الصادقة النابعة من القلب هي التي يمكن أن تصيب طريق القلوب،

فالقلوب المتألمة تعرف بعضها، ولهذا هي وحدها التي تفهم المواساة:

"السلام عليك يا صاحبي

تشكو إلي الناس فلا تجد عندي عزاء على غير عادتي

تكتشف اني اشكو مما منه تشكو

ولكن لا بأس أن يسامر المجروح مجروحاً مثله

فلا يفهم طعم جرحك إلا من ذاقه

ولا يعلم وجع الطعنة إلا من جربها"⁴

هكذا يصور "شرقاوي" هذه الطبقة الروحية التي تواسي بها القلوب المنكسرة بعضها بأسلوب ولغة ابداعية تلامس القلوب دون تكلف.

فاللغة الابداعية هي التي يعبر بها المبدع عن خلجات نفسه، وهي التي تعبر عن عمق الأفكار وصدق المشاعر، هي الوسيلة التي من خلالها تسمو الذات المبدعة إلى سماء الابداع، فيصبح المتلقي أمام بلاغة ابداعية متفردة حيث تورطه اللغة في لعبة الفهم والاحساس والتأويل.

فإذا كانت بعض النصوص تستوجب النقد النفسي لقراءتها، فإن "بارت يرفض أن يمارس ذلك النقد النفسي الذي يفسر العمل الأدبي بالصراعات اللا واعية للكاتب أو الشاعر كما يكشفها تاريخ طفولته... ولا يريد البحث في العمل الأدبي عن العناصر المسببة للأمراض التي تكشفها بعض المعطيات البيوغرافية، وإلى إقامة علاقة بين المظاهر الباتولوجية (المرضية) لشخصية المبدع وبين محتوى الأثر الأدبي.⁵ ولهذا فالكثير من النصوص الأدبية يميل القارئ فيها إلى اعتبار أن المؤلف هو صاحب الحكاية، فقد يتحدث عن الأم الناس ولكنها ليست بالضرورة الامه.

لكن ما يحدث في "السلام عليك يا صاحبي" هو احساس عميق بالحياة والناس، وما ينبغي أن يشغل القاري هو سؤال: لماذا يحدث كل هذا الخذلان؟ أكثر مما ينبغي أن يشغله سؤال: هل هو صاحب الحكاية؟

ما يلامسه "شرقاوي" في هذا العمل هو عمق الذات الإنسانية، وذلك الصراع بين الكينونة الفردية وحققها في العيش في سلام نفسي وبين الآخر الذي يصبح مصدر ألم نفسي فيتحول إلى غريب بعد أن كان انيس الذات، فلعل أصعب الجراح ما أتاك من القريب وليس الغريب، ولعل تاريخ الحيات وقصص الغدر كانت دوماً من القريب، فالمسافة التي منحتها هؤلاء، ليتجولو بأمان داخل حياتك ستكتشف لاحقاً أنها الخطأ الكبير الذي ارتكبته في حق نفسك، ولهذا كان الإنسان دوماً في حاجة إلى مسافة أمان تفصل حدوده عن الآخر.

⁴ السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص157.

⁵ من قال أن الناقد قد مات: حسن المودن منشورات المتوسط، 2024 ص 85



أن ثقافة المسافة واحترام الحدود بدت تفرض نفسها في وقت أصبحت العقلية والعلاقات الإنسانية تعرف توترات وصراعات كبيرة، وبدا من الصعب أن يجد الانسان نسخته التي يأمن لها لدى الآخر، وأصبحت رحلة البحث عن الأمان النفسي شاقة جدا.

سئل الإمام أحمد بن حنبل:

كيف السبيل إلى السلامة من الناس؟

فأجاب: تعطيهم ولا تأخذ منهم

ويؤذونك ولا تؤذهم

وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحك

فقليل له: أنها صعبة يا أمام؟

قال: وليتك تسلم⁶

لقد أصبحنا في زمن تعيش فيه الإنسانية أزمة حقيقية، أزمة مبادئ وقيم واخلق فاضلة، وأصبحت التعاملات بين الناس مفرغة من معانيها الإنسانية، وطغى في المقابل كل ماله علاقة بالماديات والمظاهر، والمصالح الشخصية، فبدأت تنهار كل القيم الإيجابية في الحياة، وأصبح الانسان هو مصدر شقاء أخيه الانسان.

ولهذا عبر الكثير من المبدعين عن حجم الخيبات والقهر الإنساني، في نصوصهم الابداعية، فأسيلت الأقلام حول الغدر والحقد والخذلان والظلم والأذى... ولعل هذا عصارة ما كتب "شرقاوي" في كتاباته، وخاصة ما ورد في مؤلفه "السلام عليك يا صاحبي"، فكانت هذه الطبطة الروحية لأجل هؤلاء المنكسرة قلوبهم، والذين كانوا ضحايا طعنات غادرة ممن كانوا يرون فيهم ملاذ الروح ومسكن القلب والأيدي الآمنة، التي ستدفع عنهم كل شر، لكن دورة الحياة ستبين أنهم لم يكونوا بين أيادي آمنة، ولم يأت الأذى إلا منهم فلولاهم لكانوا بخير وماعانوا من شرهم المستطير.

أن من المفترض أن تكون علاقات القرابة علاقة أمان وأخوة، ففي هذه الأخيرة "تستقر تجارب التواصل مع الآخر، ويجري اختبار القبول بالآخر، وامتحان الأنا في قدرتها على قبول التقاسم والتبادل والتضامن والتعاون بعيدا عن الغيرة والحسد والكراهية، والأخطر من ذلك انه بروابط الإخوة تتأسس الروابط الاجتماعية وتنظم، فالجماعة الإنسانية ليست ممكنة إلا بتجاوز أنانيتنا وغيورتنا إلى التماهي مع الآخر، ذلك الأخ الشبيه، وباعتبار أن القوة لا يمكن أن تتحقق ألا في وجودنا بطريقة جماعية، يطبعها التواصل والتماسك والتعاون، وتحتفي بقيم الحب والخير والحياة".⁷

غير أن هذه القيم بدت تنتفي في العلاقات الإنسانية في زمننا هذا، ومن هنا تتولد معاناة الإنسان من الآخر، فتصبح الخبيبة هي عنوان هذه العلاقات، وهذا ما حملته إلينا كلمات "شرقاوي" وحملته سطره بشكل واضح وفي خطاب مباشر لا يستدعي التأويل كثيرا، ويحمل من الصدق ما يجعله يلامس المشاعر بقوة ورهافة حس عالية:

لا تبتئس لانهم تركوك وأنت في أشد لحظاتك حاجة اليهم،

صدقني، كلما جاءت الخيبات باكرا كلما صار الترميم أسهل

الطعنة في منتصف الطريق موقعة،

⁶ السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص 11

⁷ من قال أن الناقد قد مات: حسن المودن، منشورات المتوسط، 2024 ص 71.



ولكنها في اخره موت،
 أن بقي فيك رمق
 يا صاحبي،
 لا تلم نفسك، ولا تبحث فيك عن سبب،
 الغادر لا يحتاج سببا،
 لقد كان غادرا منذ البداية،
 وكان يتحين الفرصة، وها قد أتت
 واياك أن تسأل: لم تغيروا؟
 كانوا هكذا منذ البداية،
 فالأيام لا تغير الناس،
 ولكنها تكشفهم على حقيقتهم...
 لقد كنت تحسبهم طوق نجاة بينما لم يكونوا إلا قشة
 يا صاحبي
 كل خذلان من الناس يقربك لله أكثر
 فتزداد يقينا انه امانك الوحيد
 فتحامل على نفسك وامض
 وأقرأ في المصحف ورمم ثقب قلبك
 وتعز بالذين سبقوك
 فإن ألقيت في جب الحزن
 فقد ألقى يوسف عليه السلام قبلك وبيد اخوته
 وهكذا هي الحياة
 أن ما تخسره ليس بالضرورة أن تسترده
 ولكنك ستعثر على ما هو خير منه
 فعض على جرحك
 وانتظر ربيعك⁸
 هكذا بحث "أدهم شرقاوي" على القوة وعدم الاكهار في وجه غدر الآخرين،

⁸ السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص 96-97-98



هكذا يواسي هؤلاء الذين نخرقهم الحياة وذاقتهم الويلات فاصبحوا على شفا حفرة من الانهيار، ييث بداخلهم شجاعة الصمود وقوة المواجهة، يقول:

الشجرة يا صاحبي لا تنن تحت ضربات الحطاب

وإنما ترمقه بشموخ من أعلى

فإياك أن تنن

فإن حطابك الذي جاء لاجتثاثك يسعده صوت أنينك

فإياك أن تسمعه مايسعده⁹

أن مؤلف "السلام عليك يا صاحبي" جعل الكاتب "أدهم شرقاوي" من الكتاب القلائل الذين خاطبوا القارئ العربي بهذه الطريقة الاستثنائية في الكتابة الابداعية، فال بهذا كم هائل من الاهتمام والاعجاب، في وقت تعرف فيه القراءة في المجتمعات العربية أزمة كبيرة. ولعل هذا النهج في الكتابة عبر عن بعض حاجيات الكتابة التي يرغب فيها القارئ العربي، كتابة تحاور الذات الممتلئة بالوجع، وتحاول أن تواسيها وتشحنها بالقوة النفسية لتواجه معاناتها، كتابة تعرف جيدا من أين تؤكل الكتف في محاوره النفوس المتألمة، ولهذا نجح "شرقاوي" إلى حد بعيد في أن يكون صوت هؤلاء المنكسرة قلوبهم، فكانت كتابته بمثابة ضمادات شافية لجراحهم الروحية.

أن القارئ الذي ألف نوعا معينا من الكتابة الابداعية غالبا ما تنحصر بين جنسين أدبيين كالشعر والنثر، والى أن يتماهى مع ابطال تلك الأعمال نظرا لتشابه الظروف والملامح التي يحملها ابطال هذه الأعمال، يجد نفسه اليوم قارئ من نوع آخر مع كاتب من طينة مختلفة، كاتب أراد التعبير عن خيبة الناس وحجم شعورهم بالخذلان، عن الأسى الذي امتلأت به سطور كتابته، متخذنا نمطا جديدا في الكتابة النثرية الابداعية، أنها كتابة العائدين من رحلة الوجود، الذين ظنوا ذات لحظة أن رحلتهم بلا نهاية، لكن منعرجات الحياة لا تعرف التوقعات، فلكل شئ نهاية، ولكل وجع شفاء، والحياة العادلة لا تقبل سوى الإنصاف، فالذين اهتز أمانهم ذات يوم سيعودون حتما إلى بر أمانهم وإلى سلامهم النفسي، فمعارك الحياة مهما كانت طويلة وقاسية، لابد أن تتوقف ولا بد أن تستعيد النفس المحاربة أنفاسها وراحتها، لا شئ يدوم، لا شئ يستقر إلى الابد، كل شئ متغير في الحياة، أنها حقيقة كونية لا جدال فيها، ولهذا حاول "أدهم شرقاوي" أن يصور لنا من خلال مؤلفه "السلام عليك يا صاحبي" أن لكل ألم أمل ولكل عسر فرج، وأن لحظات المعاناة المنتهية لا محال، وأن لكل شمس سطوع، ولكل فجر بزوغ.

ولعل الشعور بوجع الناس وآلامهم والتعبير عنها لقدرة كبيرة من المبدع الذي يتمتع بإحساس مرهف وعال في نقل هموم الإنسان، فالأنا لا تتكلم ولا تصف استنادا فقط إلى قناعات خاصة يمكن أن نقول عنها أنها فردية، بل تفعل ذلك أيضا استنادا إلى كل الانتماء التي تجعل الفرد جزءا من مجموعة، أي تحقنا لذهنية تعبر عن النحن التي تنطلق منها الأنا من أجل بناء عوالمها المخصوصة¹⁰

ولهذا كانت لغة "شرقاوي" في مؤلفه "السلام عليك يا صاحبي"، لغة سلسلة، فصيحة، بليغة في بساطتها، مشحونة بالمعاني والدلالات العميقة، المسقاة من القلوب العميقة، لتكتب بإحساس صادق وعميق يشد على القلوب المتألمة، وينير عتمتها بالمواساة الصادقة، ولعل الكتابة بلغة القلوب هي أصعب أنواع الكتابة، تلك التي لا تهمها المفردة في حد ذاتها، بقدر ما يهمها ما تحمله من أحاسيس ذات معنى، أنها المفردات التي تحول القلوب إلى لغة، ولهذا وجد قراء "شرقاوي" ذواتهم في كتاباته، وجدوا الاطمئنان والدواء، أو ليست الكتابة شفاء من جراح الزمن، بلى، إنما كذلك، إنما بلسم الجراح، وطبوبة الروح.

⁹ السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021 ص 98.

¹⁰ الهوية السردية المحكي بين التخيل والتاريخ: سعيد بنكراد، المركز الثقافي المغربي 2023 ص 113.



أن التأثير النفسي للقراءة لكبير جدا، ولذلك لم تكن الكتابة يوما مهمة سهلة لدى الكاتب، فالمنتوج الذي سي طرح بين أيدي القراء، ويتفاعلون معه، ويقرأونه بقلوبهم قبل أعينهم، لي جعل عمل الكاتب ليس من السهولة. يمكن، فهو يكتب عن المجتمع ويقرأه المجتمع، فلا بد إذن أن يكتب بلغة المجتمع، وب عقل و قلب المجتمع، وهذا يحتاج إلى تملك الكثير من الأدوات، لتصل إلى الكتابة الاجتماعية.

ولاشك أن "أدهم شرقاوي" حقق المعادلة الصعبة في زمن "أزمة القراءة" وأزمة "ذوق قرائي" في وقت اكتسحت فيه وسائل التواصل الاجتماعي حياة الناس، وتغيرت فيه أولويات الحياة، وتغير الذوق العام بشكل عام، كما تغيرت الطباع والعقليات، وهو ما انعكس على أساليب الحياة التي أصبحوا يؤمنون بها،

إلا أن النجاح الذي يحصده "أدهم شرقاوي" بعد كل عمل يطرحه بين أيدي قرائه، يؤكد أنه نجح في فهم القارئ العربي، وفهم دواخله، وخلجات نفسه، واستطاع أن يواسي روحه المتعبة من مشكلات العصر، وأنين الزمن، وكل ما يثقل كاهله من متاعب نفسية، بسبب الغدر والخيانة والظلم والنفاق وهوانه على الناس التي اعتقد ذات يوم أنها بره الأمن، وطوق نجاته من هبوب رياح الحياة.

أن السلوى التي يقدمها "شرقاوي" لقراءه في كتاباته لتجعله يتقلد وساما رفيعا في تاريخ الكتابة والأدب.



المراجع والمصادر

- 1- السلام عليك يا صاحبي: ادهم شرقاوي، كلمات، 2021
- 2- الهوية السردية المحكي بين التخيل والتاريخ: سعيد بنكراد، المركز الثقافي المغربي 2023
- 3- من قال أن الناقد قد مات: حسن المودن، منشورات المتوسط، 2024